ما وراء النافذة

قصص قصيرة

آزال الصباري

ديوان العرب
للنشر والتوزيع

دار ديوان العرب للنشر و التوزيع – مصر - بورسعيد

اسم العمل : ما وراء النافذة

اسم المؤلف : آزال الصباري

الجنسية : اليمن

التصنيف الأدبي : قصص قصيرة

الترقيم الدولي : ١ – ٧٧ - ٦٧٠٧ – ٩٧٧ - ٩٧٨

رقم الإيداع : ٢٢٥٢٦ / ٢٠١٩

تدقيق لغوي : هبة ماردين

تصميم الغلاف : محمد وجيه

المدير العام : محمد وجيه

تليفون : ٠٠٢٠١٢١١١٣٢٨٧٩

إهداء خاص

إلى ... نَصْرَة صالِح،

أُمِّي الَّتي فارقَتني وهي تُفَكِرُ كَيْفَ سَأُكْمِلُ تَعْلِيمي الثَّانوي.

إلى ..أَسِيل جمال،

ابنتي الَّتي أخافُ أنْ أُفارِقها كما فارقتني أُمِّي.

إلى... اليمن السَّعيد

وَطَنِي الَّذي لم أره سعيداً .. وأُصرُّ أنْ أبتسمَ لهُ كلَّ صباحٍ علَّهُ يبتسم بميلاده المغاير

لمصرَ ... أُمِّ الدّنيا الَّتي تحتضنُ أنَّاتَ مرضي بقلبِها الكبير

****

الإهـــــــــداء

إلى كل البسطاء الذين ألتقي بهم كل يوم في طريقي ؛

الحاملين وجع البلاد فوق أكتافهم ،

الملتحفين بردها.

المرتجفين جوعا،

المتقاسمين مع الأرصفة قطع الرغيف،

النائمين خلف أسوار الحياة،

الحاضنين ارتعاشات المدينة

والمبتسمين رغم كل ذلك .

آزال الصباري

****

كسوة

اختلس الليلَ من وراء سترته الملونة، فتح الدولابَ، أخذ كسوة العيد واشتمَّ العطر الذي نثرهُ عليها مراتٍ ومرات، ضمها، احتضنته الأحلام مجددًا، ابتسم وابتسم.....

في الصباح انتشل رجالُ الإنقاذ الملابس المتشبثة بيديه، وبقي ثغرُهُ من تحت الأنقاض يبتسم للعيد.

****

بلقيس

" هدوءٌ مريبك، لا صوت سوى قطرات ماء تُلقي بلحنها من الصنبور ليقع في قاع السطل، صوت قطرات الماء هي الشجاعة الوحيدة التي تُمارس هنا، حتى الكلاب التي تجاور حائطنا و لم تصـــمت منذ اسودت مصابيحُ المدينة، منذ لحظاتٍ اختبأ نباحُها الذي كان يخيف الليل . كم أحتاجه الآن لأرســم خيالًا عظيماً لشــجاعة تدب في خاصرة هذه المدينة المشلولة ... حتى أبي تأخر هذا المساء، وكلماتك التي يحتزم بها قلبي تأخرت أيضًا ".

بعثتْ لي بتلك الرسالة ، قرأتها وكلما انتهيتُ، و عيناي معلقتان في آخر ظهورٍ لها، أعدت قرأتها .... كانت عميقة كلماتك كعادتها.

تدثرتْ روحي بتـ لك الكلـ مات، واقتحم قلبي وجعٌ كبيرٌ لم يفلح طيلة هذه الحرب بالتسرب ولو للحظات إليه.

لم يكـن يعنيني أمر الحرب، ليالٍ لا تعد لم أهرع فيها للنافذة بعد دوي كل صـــاروخ يخترق صـــمت المدينة ، لم أفعل ذلك ولو لمرةٍ وا حدة كـ ما يفـ عل الجميع، يصـــنعون ذ لك دون إرادة منهم على الأغلب .

رسائلها تحملني بعيداً عن كل ذلك، رنة رسالةٍ منها كانت كفيلةً

لجعل نبضاتي تسبقني نحو نافذة هاتفي المحمول، تلك نافذتي الوحيدة، وأحصي بعدها عدد أنفاسي التي سقطت صريعة جوار كلماتها .

لم يشدني صراخ الأخبار بعدد الضحايا، كنت أشك في الأخبار ، و ربما كنت أتغابى ، لا أتذكر الآن سببًا مقنعاً يسعفني لأبرر لي غيابي عن كل ذلك ، حتى دموع أمي التي لم تتوقف منذ أول جنازة شاهدتها في أول نشرة للموت؛ لم أحزن عليها وهي الدموع التي يتساقط لأجلها قلبي كأوراق الخريف .. لكني رغم اللامبالاة التي ترافقني، تعيسٌ بما يكفي، تعيسٌ بالقدر الذي تتمناه التعاسة .

راتبُ والدي المفقود منذ عام، هو خبرُ المبتدأ الذي أبحث عنه منذ اشتعلت الحرب، وا لحدث الذي جعلني أخون أمي وأسرق أ مان حقيبتها نهاية كل أسبوع لأشتري باقة (للانترنت) تضمن لي عدم غياب حروفٍ تدفئ كلَّ الأزقة التي تمشطها تعاستي...

كنت أتألم كلما باعت أمي خاتماً، أو أجزاء من عقدها اليتيم الذي كنت أ ساعدها كلَّ مرةٍ في تمزيقه قطعاً ق صيرة، لنسلمها للصائغ مقابل عودتنا إلى البيت ببعض الخبز والماء والشمع .

كنت أعلم أن حلتها أوشكت على النفاد، إلا أنني كنت أسرقها وبطيش يشبه طيش الرصاصات هنا ، وحين ألتقي بأصدقائي أحدثهم عن عظمة أمي وعن صبرها وحكمتها، وعن بري بها وأنا

أسرق تلك الريالات التي أشـــتري بها تلك الباقة التي تمنحني حروف بلقيس كل ليلة.

توجهت هذه المرة نحو النافذة، وذاكرتي تعيد ترتيب كلماتها عن المدينة المتوجسة، ونباح الكلاب ، وأبيها و.....

نادتني أمي : أسعد لا تقتـرب من النافذة؛ قالوا : ستحدث اشتباكات كبيرة في الشوارع القريبة.....

تذكرت عبارتها (حتى أبي تأخر هذا المساء .. ...)

اســتدرت نحو هاتفي، أردت أن أخبرها عن خطورة الشــارع، وأنه يجب أن تتصل بأبيها، تمنيت أن أتصل بهِ بنفســـي، لو كان الحبُّ حلالاً في مدينتي لفعلت ذلك، اكتفت أناملي بممارسة الحبِّ سراً كعادتها، إلا أنها هذه المرة تمرر خوفي على اســم بلقيس المتصــدر قائمة الأسماء في شاشة هاتفي ، وأذني تسترق صوتها من بين أنات المدينة .

ـ" قد يكون الجهاز مغلقًا أو خارج التغطية ..... "عاودتُ الاتصال لمرات ...

استيقظتُ مبكراً ، كنت قـــد نمت ليليتها أسفل النافذة ، انتظر حروف بلقيس ... فتحتُ عيني على إشـعار وحيد يتوسـط شـاشـة الجوال ، كان من يوسف صديقي الوحيد الذي أخبئ سرها في قلبه.

-بلقيس يا أ سعد ... . بلقيس وأهلها اختفوا.. وبيتهم م ســـــروق وأبوها قالوا : أبسروه * مذبوح "

من بعد تلك الرسالتين ، ويداي تعبئان بندقية أبي القديمة ، أطلق الرصـــاصـــات في ســماء المدينة ، وأهذي :" بلقيس ، بلقيس ، بلقيس ..."

****

*ابسروه : شاهدوه باللهجة الصنعانية.

قِصَاص

ترك عينيه فوق حطامات الأسئلة، وزحف بجروحه ...
مزقتْ صراخاتُ المدينة أنفاسَه، وامتزجتْ دماؤه بحزن الجبال ...
جرّ حيرتهُ ....
وحين استرقَ سمعُهُ قهقهاتٍ تُكفنُ أنين الأرض،
أُكتشفَ أمرَهُ ، وقبل أن يجهزوا عليه ، لحقت به عيناه لتخبر الله بخيانتهم .

****

بث مباشر

من خلف الشاشات ، الأخبار تصدح بالنصر المرتقب، وهو يلتهم لعاب خطبته ، يهتف بالمزيد، ويحلف بالنصر...
يخون الشاشات مراسلوها ، صورة حية...
" صاروخٌ لا يزال ينفث ناره ... يتفجر صاروخٌ آخر .."
اختلط الوطن بالأنين .....
غادر هو منصته ، و سبابته تتوعد أشلاء المراسلين بالموت .

****

غفلة

لم يلحق الريح ... تركها تسافر ، خشي جنونها .
كعادته يرتبكُ حين تنطلق الأشياء من خلفه ، ثم ويختفي خلفها ...
على مفترق الطريقين يجلس ، يضع على خده عجز أفكاره بيدٍ تقبضُ البؤس ، وتخمش به جدار حلمه القديم.
جرتْ الريحُ باتجاهٍ جديد، وتجمد هو في نفس المفترق .

****

عامٌ جديد

لا تزال في حيِّ قريب تلوكُ الصبر وتختنق بمرارته .
لم تبتعد كثيراً ، تخاف أن يضيع الطرق في ذاكرةٍ أضعفتها
لكمات حزنٍ لم يستأذنها منذ أول ثانية لاصطفاف الجنائز.
لم يُفتح أيُّ بابٍ بعد أن فتح لها ذلَّهُ مرةً بالخطأ ...
تجاوزت كلَّ الأحياء ، فتجاوز الطريقُ حدود ذاكرتها .
لم تعد... ولم يطرق بابَ الصغار عامٌ آخرٌ من الخبز .

٢٠١٦

****

أسئلة

دار حول نفسه.....
من أين ينطلق الموت ؟؟ يغتاله هوس .
الريح تجرف الموت من الطرقات !!
تكاثر الموت ، وازداد خوف الأسئلة ..
تدور أفكاره .... ويشتد الموت ... ويشتد ال....
وحين توقف عن الدوران ، تحرك إلى الأمام قليلاً ، فخمدت الأسئلة .

١٨ / ١/ ٢٠١٧

****

كساد

يتجاوز بعكازه فتحةً صغيرةً في زاويةٍ تتوسط الطريق المسافر إليه.
لا يزال هناك ولا يزال عكازه مرتبكاً ....
أكلَ الطريقُ من العكاز الكثير ، واتسعت الفتحة أكثر.
تكوّرت كلُّ الأنوار باتجاه حفرة مظلمة ينتهي فيها الطريق ذاته.
حاول العبور.....
تفتت العكازُ ، والتهمتْ الفتحةُ ما تبقى.

****

حكاية وطن

انتهى من خطبته السرمدية .....
نزل من المنصةِ العظيمة .....
قطَّفَ أوراقَ القات ، نمَّقها ، أزاح الغبارَ عنها ، التهمها ....
بعد ساعاتٍ أزالَ آثارَها من فمه.....
ولا يزال التصفيق الوطني حتى اللحظة حاراً من خلف الشاشات.

٢٠١٥

****

قلم رصاص

رفع يمناه مجاوراً بها الأفق ، ومصافحاً بها الأحلام ...
ردد قسماً حفظ كلماتهُ من نشرة الأخبار منذ أمنياتٍ طافحة
بوطن يتجدد ، تربع مكتبهُ الفخم ، استنشق عميقاً تلك الرائحة...
انتهى الدوام ، حمل معه أوراقاً جديدةٍ لا تعد...
استقلتهُ سيارته الفارهة لأول مرة ، ولأول مرةٍ أيضاً تطلع لوطنه
من خلف زجاجٍ عاكس ....
من خلف الزجاج العاكس أيضاً مرر قلمَهُ على الأوراق ، تذكر أن
الحبر يصعب إزالته وتذكر كذلك أنَّه فقد قلمَهُ الرصاص أثناء
تأديته كلمات القسم الوطني العظيم .

****

هامش

إنَّه هناك..... يجري خلف الكلمات ، لم يتفحص حتى كلمةً وحيدة ، لم يضع خطاً أحمراً ، ولم يدون سؤالاً في أسفل الصفحة ، هو دائما يُطفئ مصباحهُ ، يغرقهُ في جيب معطفهِ .
يركض لاهثاً بالكلمات نفسها ، يهذي بها ....
يُسابق حرفاً وحيداً في الأعماق ، لا يزال يحاول الوصول إلى ناصيته .
فجأةً توقفتْ الكلمات من حوله، و سقط هو على هامش الصفحة .

****

جلد الأسد

جحشٌ صغيرٌ تجرد من كلِّ قواعد القطيع .....
بقفزاتٍ طائشةٍ هنا وهناك ، متأخراً يشبع غروره بنومٍ طويل ، ثم سرعان ما يعاود الملاحقة .
يتجاوز حدود طريقهم ، يحتل بدهاء أماكن من سبقوه ، تحتشد خلفه زمرٌ تصفق له !!!!
كبر الجحش وصار لعوبًا محترفاً ، ضاعت ملامحهُ تحت جلد أسد غُدِرَ به في الطريق نفسها.
ترأسهم زمناً توقف طريقهم فيه.
إلا أن اعتياده على القفز أوقعهُ ، فسقط جلد الأسد ونهق حمارًا.

****

الكلب الوفي

تلملم القريةُ خوفًّ أشلائها ، وترتعد تحت سباتٍ يدثر هلعها لتنام الأسئلة المتضاربة بين البيوت والأزقة . هكذا هي كل ليلة منذ غفلة سكنتها .

وحده الكلب يفيق الليل ، يحرس ما تبقى من خرافٍ جُمِّعت في حظيرة تتوسط القرية، بعد أن اختفت المئات منها وتناقصت ببطء .

ذعرٌ يمخر عقولهم ، وحيرةٌ أربكت ثقتهم ؛ " كيف تختفي الخراف تحت عباءة من الصمت دون أثر ؛ " هوس تداولتهُ القرية.

ترتعب القرية ، ينخر الشكُ واجهات البيوت، تُخرم الأقفال المحكمة باليقين، تبادل الجميع خيانة الجميع، نسجوا في ذواكرهم صوراً تتناسب مع ما يقال ،اختلفوا في عبور ممرات اليقين واتفقوا على عبارة وحيدة " اللصُّ أحد أهل القرية " ؛ إذ لم يُسمع للكلب نباحاً في أي ليلةٍ ينذر بدخول غريب إلى القرية .

تتأهب القرية للصِّ، يُعلن حظر التجوال ، تُقفل الأبواب، تترصد القرية مغاليقها، من خلف النوافذ، يرتقبون اللص ، تنطلق

بندقياتهم صوب العتبات..... في ذلك الوقت كان الكلب قد أطعم الذئب باقي الخراف .

****

تذكرة

اشترى الكثير من الهدايا للأهل وكثيرٍ من الأصدقاء و ....
مضى أشهراً يختصر ويقتصد في تكاليفه اليومية؛ ليوفرَ كلفةً لزمن العودة.
قاربت الإجازة ... اختطفه الشوق ليقتنِ تذكرة العودة - بعد عمرٍ مبتورٍ الطراوة - وقف محاذياً لشباك يضاعف شوق الغائبينِ.
يقلّب الموظف الأوراق، ترتفع عيناه، تُدوِّرُ حزنها في وجهٍ أجهده الشوق ، يتثاقل بوح كلماته : أعتذر.... لا يوجد وطنٌ بهذا الاسم.

****

مقاومة

كلما اقترب الليل من الأركان ؛ اشعلتْ شمعةٌ نفسها لتضيء المساء .
لم يجد هو وسيلة للخلاص من كلِّ تلك الشموع التي تفسد طقوسه الهمجية.
اشعلتْ شمعة أخرى نفسها ؛ ازداد وحشيةً ، اشتعلتْ أخرى وأخرى .
تهكمَ وتجبر ، اشتعلتْ جميعها واتحدتْ فتائلُها ، فاحترق الليل .

****

كان يا رمضان

يحكى أن لرمضانَ فانوسٌ مختلف عن بقية الفوانيس، ينير شوارع الأطفال ويتنقل مابين مقيل الشباب وتهجدات الكبار ، غدر المكان بالحكاية فجفّ زيت الفانوس ، وطار فتيلهُ مع الرياح، تداول الناس الفاجعة ، كثرت الأساطير عن الطريق إلى الفانوس، قالوا :

-طريقٌ طويل، وشبه مستحيل ....

- كيف نبحث والطرقات مظلمة دونما نور ....؟

يتشتت الجمع وتتشعب الدروب ، يتبادى نور من بعيييييد .....).

تكمل الأم حكاياتها، ويخمد الجوع صغارها ويتمون الصيام.

****

غربة

كلما استراح تتوسدهُ الذكريات، فتنهشهُ الغربة،
استعصى عليه الأمر،
فقررَ بيعَ ذاكرتهِ ..... وحين ناسبه السعر؛ رفض...
إذ تذكر أنها كلَّما تبقى له من وطنه.

****

في حضرة القط

تفتح الأم باب المنزل .... بينما لا يزال البقية يلقون عن ثيابهم غبار رحلة طويلة .
جحظت عيناها مع أول نظرة ألقتها في (المطبخ) .
تحولت أشياؤه إلى فتات، و أكياس القمح، مؤونةُ الأيام القادمة فسدت .... انتشلت الأم أقدامها من بين الفوضى، صرخت .... التفوا حولها، امتلكت الفجيعة تفاصيل وجوههم، توزعت أفكارهم تتفحص البقايا المتناثرة، أجزم أثر الخراب بأن أكثر من فأر ضخم شرهٌ أحدث كل هذا الخراب، إن لم تكن قبيلة من الفئران .
في ذات الدقائق يصدر من حجرة النوم صوتُ فأرٍ تتبعه أصوات متضاربة لارتطام خشب على الأرض، يتجهون صوبها، يخترق الفأر مرور أقدامهم، يشتت صمتهم ضحكات أصغر العائلة : (ماما ، بابا)..... تعالوا ...
يقفون مذهلوين، شاخصين أعينهم على رأس القط المتخم وهو يتكئ على باقي قطع اللحم المتناثرة بالقرب من مخبأ الفئران .

****

عروبة

"تمزقت الأوتار....."
بذلك ردت أمي عندما طلبتها أغنية المساء ليغشاني الحب فأنام.
نهضتُ لأصلح الأوتار ، رأيتني وحسب ...!!
تذكرت حينها أن أمي لم تعد هنا منذ أزمنة .
زجرتُ الحلم ، وتدثرت بحزني .

****

راتب

دسَّ يده في جيبهِ المغبر ؛ يفتش عن ريالاتٍ خلف ثقبٍ قديم ...
بعد أن رفض صاحب الدكان أن يدينهُ بعض الخبز وهو يتلو عليه ديناً تجاوز رقمَهُ مجموع راتبهُ لسبعة أشهر.
لم تبقَ من كلمات توسلٍ يضعها تحت رحمة البقال .
أطبق عينيه على بعض كبرياءٍ انتزعها من أنياب الجوع ، وابتلع مرارةً أسكتت ناصية أفكاره .
ــ جائعون يا أبي ....، صوتهم يرافق أنفاسهُ المجهده ...
مضغ دموعهُ بأنياب القهر واختنق الهواء في آخر محطة للعبور
..... توقف الطريق العائد به ...
طُرق البابُ وعيون الصغار إليه ... فخُمِد جوعهم برائحة خبز العزاء القادمة من الجيران .

****

إرث

هالَ الترابَ على قبرِ أبيه ..... قرأَ الوصيةَ ، تزينَ بها زمانه...
وقبل وفاته ترك الوصية نفسها ..
تناول ابنه البندقية متخذًا خاصرة الوطن هدفاً لطيشه .

****

نـــــور

تسلل النور من أقرب نافذةٍ لقلبي، فتَّحتُ عينيَّ المطبقتين منذ حزنٍ مشط أهدابها بتراتيله ، طائرٌ أبيض ، نور جناحيه يقترب، يكبر باقترابه . تفحصتُ ملامحهُ الصغيرة ، فتلاشتْ بين بياضهُ ونوره ...

حملني بين جناحيه وفيَّ من الاستسلام ما يكفي .. انطلقنا صوب النافذة ، حلق بي بعيداً ، و في ذلك المكان الذي لم أره من قبل – إلا في الإحلام – رأيتني أرسم كلمات مبعثرة لم أفهمها لكنها غمرتني..!

ارتفعنا ... تجاوزنا حدود سعادتي ، لا مستْ أناملي برود السحاب ، زينتُ خديَّ بنجوم ، كانت تبتسم إليَّ وأناملي تلتقطها، كأنها كانت تتقصد إغراق دهشتي بها ، ارتفعنا أكثر.....

تجاوزت سرعتنا أزمنةً كنت قد شاهدتها في نشرة الأحلام وما يسمى ب (**google**).

أشدت سرعُتنا ، امتلأت السماءُ بقهقهاتي ....

بشدة أغمضت عيني ، وحزمتها بجلابيب تقيها الحزن حين تلمستني على فراشي تدثرني بقايا وطن .

٢٠١٦

الشيخ والجزار

تأخر الجزار هذه المرة...
أمام باب المسلخ تزدحم الأفواه نفسها، من بعيد تنظر العيون نفسها، يتكرر المشهد كلَّ يوم بالتفاصيل نفسها، وتلك المرأة نفسها أيضًا تسرق كيساً فارغاً .... يصرخ صاحبُ الخضروات
-" أعيدي الكيس يا مجنونة وابتسم ــ لن يعطوكِ شيئاً ألمْ تيأسي بعد؟؟! ....
لم تلتفتْ لهذيانهِ ، وأخذتْ دورها في الانتظار .
الشيخ أمين يشربُ قهوته، ويُملِّسُ لحيتهُ المصبوغة، يتناول هاتفهُ، يجري مكالمة خاطفة .....، وعيناه تلتهم خاصرة امرأة تقصد الطابور ذاته،
يصرخ : يا سعيد ، يا جني، اتق الله ؛ لا يجوز مسح سيارات الحريم .
يخبئ سعيد ابتسامته ...! وينظر من بعيد إلى الطابور .
بعد لحظات وصل الجزار ، فتح باب المسلخ ، اجتزَّ كلَّ الرؤوس،

وبقيت العيون من بعيد شاخصة ، تراقب يدي الشيخ أمين المحملة بأكياس اللحم.

****

شاخ القمر

تعود منتصف كل مساءٍ بما تبقى من بيضٍ انتهتْ صلاحيتهُ ونبض تلاشى بين أنفاسها الرقيقة .....
في الأمس لم تعد إلى البيت ، ربما فقدت الأم باقي أبناءها ، وربما هي تبحث الآن عن صغيرتها .....
أغمض عينها برد الرصيف ، وفرش (كرتون) البيض نفسه تحت خدها المكسور ....
تولى القمر حراستها ينتظر أن تبتسم له ريالتُها من بين أناملها الرقيقة !! استغرقتْ في نومها واستغرق القمرُ في خوفه عليها .
في الصباح ، لم تفلح حرارة الشمس في إيقاظها ...
وفي مساء اليوم نفسه شاخ القمر وتجعدت ابتسامتُه على وجوه الريالات المستلقية على راحة يمينها .

****

دكان

كان عائداً من فترة العمل المسائية حاملاً بين يديه فرحة الصغار.
وضع في يد زوجته ما تبقى من نقود، تنقل بين الغرف، استنشق الأمان من أحلام صغاره الغارقة في النوم.
ألقى بأنفاسهِ المتعبة من أقرب نافذةٍ عانق منها المساء ...
ابتسم وابتسم حتى أفاقته الابتسامة نفسها في دكان ضيق الأركان أسفل أحد الأبنية في مدينة النازحين .
احتضن أضلاعَهُ ، انتحبَ بصمت خوفاً من أيقاظ صراخات أطفاله المتجمدة تحت قارس البرد والجوع .

****

رمـــــــد

مزجتْ براءة عينيها بآخر لونٍ أمسكتْ به أناملُها الطرية.
لامس خدها الأوراق مستسلمًا للأحلام.
في الصباح، فقدت تلك الأنامل قدرتها على فتح أحدى العينين المطبقتين بالظلام، لترى ترمد ألوانها على قوس قزح .

****

ثُقب أحمَر

أفزعه دويٌّ كان كفيلاً بانتزاع نومه وجعل عينيه ترتجفان وسط النافذة .... شاهد حمرةً تغطي الكون ، وثقباً كبيراً في السماء...
ارتعب، جمَّع أفكارَه ...، مدَّ يدهُ، بذ ل جهداً محاولاً ترميم السماء، لم يفلح ..!!
اتسع الثقب، تشوهت السماء، وتشوه قلبُهُ أيضاً، ازداد تشوهاً .
فتَح أضلاعهُ ، أمسك بقلبهِ حاول ترميم تشوهاته ، اتسعت الشروخ ، تمزق قلبه ، امتزجت أنامله بالدماء.....
ارتفع صوتُه ..... أيقظ الجدران، سقطتْ نظراتُه، تلمس قلبَهُ ...
اقترب من النافذة؛ شاهد وطناً يحترق .

****

ثورة

التهم أغصان القات بشراهة ....
بحماسٍ تحدث عن الوطن ....
تناثر القاتُ من فمه ، اتسخ المكان ، تفرق الحضور ،
فهبتِ المقاعدُ ، معلنةً ثورتها .

****

حديثُ سائق

أقبل إلى الوطن يسابقهُ الشوق ، بعد غربةٍ طالتْ كثيراً. نزل من سلم الطائرة ، لم يكن من أحدٍ في انتظاره ...
حمل حقائبهُ المحملة بالأحلام والآمال والهدايا وبقايا غربة .
صعد إحدى سيارات الأُجرة ، ارتاد البيت والروح تسابق عجلات السيارة وصولاً لأهله و الأحبة ؛ جالتْ في باله الكثير من خواطر اللقاء .....
نزعها منه سائق السيارة (التاكسي) : من أين طريقك ؟
_ من هنا ؛ يشير يساراً ثمّ يمين .
ـــ من أين عدت ؟
ـــ من أمريكا ....
ـــ من أمريكا .....!!! لماذا عدت ؟؟؟!!
ـــ لأجل هذه الرائحة .... قالها وهو ينظر إلى الامتداد الكبير .
ـــ أي رائحةٍ رعاك الله ؟!!!!
تمر السيارة بشوارعٍ وحوارٍ ؛ لم يتغير فيها شيء غير معانقتها للكثير من الغبار ، وصل ، استقبلتهُ وجوه يلونها الشوق والألم ...!!!

نزع ألواناً علقت في ملابسٍ يرتديها ، بلهفة تنفس كل الأشياء.
ظلَّ يستنشق الرائحة .... واستمر يستنشق الرائحة ، حتى عاد لحديث السائق .... ، وعادت الآمال والأحلام إلى الحقيبة .

****

تحت الجسر

منذ زمنٍ يضع رأسه خاليًا من الاضطرابات التي تضخ بها رؤوس المتضاربين خارج حدود منطقته، تلك المنطقة التي لا يسكنها إلَّا المتحررون من نفايات الماضي.

يمارس حياته بكرم؛ يتحدثُ كثيرًا ويضحكُ أكثر، يتكئ على أريكته الخشنة، يلتقي بأولئك المثخنين بالوجع، يعبر طرقاتهم ربما أكثر منهم وربما لا يحتمل الحديث ربما .

افتتنت نظراته باخضرار العشب، تلمس الوقت، فامتدت أمامه حديقة تكسوها الخضرة، وتداعبها ضحكات الصغار المصفوفة على الألعاب .. " أين أنا ؟" لم يقلها !!!؛ اعتاد أن لا يتساءل .

انتفض وانطلق مسرعا باتجاه بوابة الحديقة ، تصبب في عينيه نورٌ صاخب، فتَّح عينيه مجددًا، تفحص مبعث النور، شاهد الجبال تتفتق به والمسافات البعيدة تخطه بعناية، والسماء تجدول امتدادها فيه ...

وتلمس نفسه، توالى ناظريه المترامين في الدهشة ليسلمهما لذهول تأتي به، ودون قصد منها .

مدينة تراقص النور على وقع أطراف أوتار طرية، تشبه لحد ما

لحناً يزوره، لا يتذكر جيدًا موعد تلك الزيارات، هو فقط يتذكر ذلك المشهد.

فرك عينيه ... مرة أخرى، أستعاد الرؤية، شاهد أرضًا تمتد وتمتد، وينبت منها صغارًا، هم أنفسهم الذين شاهدهم في الحديقة ...

اشتد نبضُه، التفت إلى الخلف ، اختفت الحديقةُ ، أعاد النظر لم يجد سوى سواد ....

تلمس نفسه هو كثيراً ما يتلمس نفسه، صرخ بشدة ...استيقظ .

تجرد من بقايا سترته ، نفض بقايا أصابع الدخان ، لا شيء يحمله غير أصابع شعره المتجمدة بالأتربة ، فرَّ ... وترك مسكنه الوحيد أسفل الجسر.

****

سرقة

عاد من عمله، تحمل ملابسُهُ أتربةً لا رائحة لها، و يستريح الغبار على شعر رأسه بعد سفره طويل، والشمس قد رسمت تجاعيدها على جبينه باحتراف، وفي خاطرهِ كثير من الشـوق لوجبةٍ تحمله بعد أن جثم الطريق على ركبتيه العاريتين من اللحم.

كلما مرّ من أمام مطعمٍ من مطاعـم المدينة هاجمت رائحة أطعمتها أنفه الذي سرعان ما يشـعل ثورة أمعاءه، فيشـتغل خاطره بالشـوق لوجبة، قد لا يتذكر آخر مرةٍ تناولها.

فتح الباب متأهباً لإلقاء ما أبقاه العناءُ من جسد، سبقته الأكياس الفارغة بكل ألوانها المتعبة، اعتادت الريح أن تسـتقر بتلك الأكياس بباب غرفته رغم كثر أزقة ا لمدينة، زفها بيده بعيداً، أغلق بابه وامتد على حصـيرةٍ صـغيرةٍ تلزم مكانها منذ أول لحظة توسـطت غرفة وحيدة أربعة في ثلاثة، تتوسـطها الحصـيرة، يقابل بابها فرش نحيل ولحافٌ جديـد بحالةٍ غير ملفته، كان قد ا شتراه من أحد أسواق الحراج المنتشـرة، لم يكن ليشتريه لولا أن ألح عليه البرد الشـديد شراءهُ بأقل من ربع ثمنة الذي كان عليه، فوق فراشـة مباشرة يتدلى كيسٌ متهرئ، منتفخٌ أسـفلهُ لا تكاد تميز

إنه كان في الأصـل شـوالة دقيق بيضـاء إلا حين تتقرب منها يدك وتتفحصـه بعناية وخلف الباب كرتون صـغير يبدو أنه كان مربع الشكل يضع فيه أحذيةٍ عفا عليها الزمن إلا أنّه محتفظ بها بجانب نعاله الذي ينظم إلى رفاقه منتصـف كلَّ ليلة، يمين الباب دافورٌ وعلبتين من البلاستيك ،الكبيرة للسكر والصغيرة للشاي، وكتاب يبدو من الخرائط الممزقة أنه لمنهج الجغرافيـا يمزق أجزاء منه ليقي يمينه حرراة علبة الفول كلما صب فيها شاي ، يدفع به برد المدينة عن جسده المتهالك ..

مددَّ جابر جسـدهُ بعد أن أخذ رشـفات قويةً من الشـاي دفعت بلقيمات الخبز إلى أمعاءه ، توقف عن التفكير بوجبة لن تأتي ، ثم خلد بعدها لاستراحتهِ القصيرة، التي لم سيكن ليحض بها لولا أن ابن مالك المنزل الذي يعمل في فيه حمالاً للأسـمنت توفى قبل ساعات ..

بعد لحظات، اقتحمتْ عينيه دهشةٌ أثلجتْ المكان؛ أشرقت الشمس في أحدى نوافذه، استطاعت أن تريه زوايا لم يشاهدها من قبل .... فجأةً ، وهو مسترسلٌ بتلك النظرات ، صارت الحجرة قصـراً محفوفاً بسورٍ عظيم واخضرارٍ آسر ...

أمام بوابة القصر قناديل يسابقها نورها، في ساحتهِ بُسطت موائدٌ كبيرةٌ لأطعمةٍ لا تنتمي لفصيلة الخبز...

ثارت أمعاؤه ، اقترب ... مدَّ يمناه لينال بعض لقيمات، لكنه سرعان ما شدَّها بخوف !! واشتعلت أمعاؤه أكثر .

كلاب يسيل لُعابُها حول تلك الموائد، نهشت أنيابها الأطعمة ، مدَّ يده مرات .. نبحتْ الكلاب بشراسة ، اقتربتْ منه عضتْ يدهُ .... استيقظ مفزوعاً " لن أفكر مرة أخرى بما ليس لي ".

****

مصيدة

كان يومَ إجازة، قبل أن تَفَرَغ زوجتي من إعداد الفطور، ســـاقتني قدمايَّ، فتحتُ بوابـــــة البيت، مددّتُ عنقي نحو السماءلأغرف ما يكفي من أحلام تعين هذا الصمود المكابر دونما جدوى، وأنا أعيد لعنقي وضعه ؛ تستقرُّ عيني على جاري حُميد المبكر دائمًا وهو يحمل عدة حقائب تغيبُ تفاصيلُها في لونٍ وحيد .

رددتُ التحية عليه ، وعيناي تسترقُ الحقائب من بين يديه ....

تساءلتُ : ما الذي يجعلهُ يستبدلُ خبز الإفطار بهذه الحقائب ؟!!

ثوانٍ فقط وتمر جارتنا مريم الملتفَّة بسترة لم تستبدل ألوانها منذ وعيتُ حقيقة الأشياء من لسان جدتي، تحمل مريم نفس الحقائب وبكميةٍ مختلفة .

تعجبتُ كثيراً لكن ليس كزوجتي التي بمجرد أن حدثتها بعد دخولي

ــ صرختْ في وجهي : لماذا لم تسألهم من أين جاءوا بها ؟ ربما سعرها معقول ....، هيا اذهبْ واجلبْ لنا بعضها ، هذه فرصة ، لسنا أقل منهم ...

تجاهلتُ إصرارها متعذِّراً بلقيمات يلوكها فمي؛ لم أرغب أن أفقد استراحة الأسبوع.

لم تنفصل عينا زوجتي عن النافذة حتى اقتربتْ مني وقد تشجنت كلماتها الملهوفة للخروج.

برفقتها صعدتُ السيارة.، أثناء مرورنا الطويل شاهدنا الكثير يحملون الحقائب يزاحمهم قاصدون جدد ....

ضاقت الطريق شيئاً فشيئاً، ترجلنا السيارة، سألت أحدهم، لم يرد، وأشار إليَّ آخر بالطريق، لحقتُ به، نسيتُ أمر زوجتي والسيارة كما نسيت هي أطفالنا ووجبة الإفطار، لم نفكر مطلقًا، حملتنا أقدامنا فقط !!

تكاثف الراكضون من طرق مختلفة، إلى نفس الاتجاه ....

هناك طاشت نظراتنا!، واستقرتْ مسامعُنا على أصواتٍ التهمت الطرقات :

ـ اقتربْ ، اقتربْ هنا ....

ـ حقائبٌ رائعة... بسعرٍ مذهلٍ وجيوبٍ كثيرةٍ وكبيرة ...

ـ حقائبُ كبيرة ... تتسع لكل شيء.

اخترقتُ إحدى تلك التجمعات، زاحمتُ، امتزجتُ بتلك الروائح، ا ستذ شقتُ عبق الغرابة، وكلَّما أُوغلتْ تلك الأ صوات فيَّ أُجهدتُ، و فكرتُ في التراجع إلا أنَّ الطريق تلاشتْ.

حينها تذكرتُ أشياء كثيرة، وكبيرة، تذكرتها فقط .
اقتحمتُ الأجســـاد ... فتنتني الحقائب للتو رغم أُحادية اللون الطـاغيـة عليهـا !!، أجزمـت أنهم محقون غير أن الثمن بـاهظٌ جدا .....
بنشـوة الانتصـار تلمسـتُ حقائبي، فتحتُ إحـــــداهن ، أتفحص جيوبها ، وحين نزعتُ عينيَّ من جيوبها لأتتبع الشوارع المضطربة بالصراخ كنا جميعاً قد فقدنا أيدينا والحقائب مقفلة .

****

يقظة

تتزين بأحمر الشفاه ...
تلقي بثغرها في المرآة،
فتضيع ابتسامتها في تلك الحمرة ويتأخر هو أكثر .....
وفي مرة لم تكن الأخيرة بيضت قلبها لتبتسم؛ صفعتها المرآة بقوة.

****

أوجاع

تحمّلَ ثُقلَ الكلمات طويلًا...
حفرها وسط السطور .. رتبها ..
تنفس آهات تناهيدها، غادرها مسرعًا؛ احترقت الصفحات.

****

مستقبل

احتضنت أكتافه الحقيبة...
سابقت ابتسامتهُ الطريق ...
في باب المدرسة تثاقلتْ الحقيبة ؛ تلمَّسها ، فتحها ؛
بترتْ يديه أولُ قذيفةٍ للمعركة.

****

أمل

أكل الحزن خاصرة صبره ...
ابتسمت عيون اليأس ..
ارتفعتْ قهقهات الخيبة ...
زحف باتجاه النور، تناول جزئه السفلي، وصعد عليه ليرى ما ما وراء النافذة .

****

شوط إضافي

طوقتهُ الأحزان ....
احتضر دهوراً،
تذمر عليها ... كورها ، ركلها بقوة ؛ هدف مزق شباك اليأس ..
وتأهل للحياة .

****

بطانية

أيقظته أصوات الهتافات العظيمة.
هتف بالكلمات نفسها التي يرددها ركاب السيارة العسكرية ..
راقبها حتى غابت، توسد ذراعه، رفعها ليهتف مرة ثانية أمام مرور السيارة الأخرى ...
تفحص الطريق... احتضنه الرصيف، أغمض عينيه ليقتل البرد (ببطانية) أحلامه.

****

جلسةٌ طارئة

تداخلتْ أصوات الأناشيد ..
رُفعت الأعلام.
اصطفت الكراسي، وفتحت الجلسة.
وعندما تهيأت ربطاتُ العنق، واتسعت الأفواه، وصفق لها الجمهور بحرارة، صمتتْ مكبرات الصوت رافضةً القمة .

****

وبـــاء

صرخَ مراراً محاولاً إيقاظهم .
وحين استنفذ كلّ الوسائل .....
أغلق بوابة الكهف خوفًا على المدينة من العدوى .

****

جزاء

طُوقتْ المشنقةُ على عنق الوطن؛ فردد الوطنُ نشيدَه بتحدي أكبر...
ازدحمت الساحة بطيشهم ، واشتد الحبل ؛
فشنقتهم الحروف .

****

وأسدل الستار

احتشدت الجماهير ..
اشرأبت أعناق الانتظار.
توسط المنصة ، فتعالت الهتافات ....
لوح بيده، خطب كالعادة .....
وحينما دوى صفير التصفيق، تضاحكت التمثيلية.

****

وهمية

كتب النص باحتراف .
أرسله إليها .. اختفتْ !!
راجع البريد المرسل ، دقق فيه ...
وقع عنوان التسلية في الصندوق المختفي .

****

الرسالة الأخيرة

صــفعتُ قلبي في كلِّ مرةٍ انتهى فيها ترجمت رســـالتكَ الأخيرة بالصمت . نثرتني الآه حولي، وتذمرت شاشة الهاتف من إصراري.
لم انتبه لأصــوات أشــلائي ، كنت أترجم قصــيدتك الأخيرة ... رســالتك الأخيرة .....صــعدت بأناملي لأقدم رســائلكَ، أردت أن أكذبني لأحيـــا بأمل ليس إلا، أغلقتُ شــاشــة الهاتف، وسريعاً عدتُ إليه ، فوجدتني ملقاة على قصــائدك ، للمرة الألف أصر على عدم الفهم ... وللمرة الوحيدة وجدتني أكتبكَ ، كما لم اكتبك من قبل .
" لم تطرق نافذتي، فجأة اقتحمتني دمرتَ كل الزوايا وتركتني أنقاضاً لا تصلح للإعمار مجدداً " ضغطت مؤشر (مسح)، وكتبتُ مجدداً " قريباً ستضعني الحياة كومة خارج أسوارها، كنفايات عفَّتها الحياة، لكني سأنبت قلباً جميلاً، سأتأخر كثيراً في المجيْ به
تماماً كمدينة تستعيد جمالها بعد خراب حروبٍ طويلة ،يشبه قلبي مدينتي المغبونة بالدمار ، هذه المدينة التي ينتظر كلانا أن تبتسم، ستبسم حتماً ..... وتشبه أنت صاروخًا يدمر كلَّ شيْ ، وينتهي " .

لم أغادر صندوق الرسائل ، ظللت أعيدُ القراءة لرسالتك تلك،أبرر رحيلك ، وأمشط الحزنَ عن كلماتي بوقتٍ يسرقني إليكَ وكلما هممت بكتابة رسالة أخرى أطبق قلبي بيديه على نوافذه ، وحبس أنفاسه، فتتحالف أناملي وتغلق بدورها الجهاز المشلول بين راحتيها، ذات ليلةٍ قبل أن يغلبني الحزن على وسادته ، مسحت صندوق الرسائل ، وأغلقتُ قلبي ، وخلدت للنوم ، بعد أن اتصلت بي إحداهن لتخبرني أنك فزتَ بلقب أصدق قصيدة حب .

****

شهادات مرموقة

التحقَ بالجامعة ، حفظ الكتبَ عن ظهر قلب ، أختطف المراكز الأولى ، أعتلى ســـلم العلم فاحترف بناء الكلمات التي ســـخرها في قضية بناء الوطن ونهضته ، مسلطاً بريقها على أهمية العلم في بناء وطنه بعد أن هاله ما أحدثه العلم من رخاءٍ للأوطان .

اكتظَّتْ حقيبتهُ بالشهادات المرموقة .

في أحد مجالس القات ســـمع عن أول فتاة غادرت قريته لتلتحق بالجامعة ، لم يلامس رأ سه الو سادة ليلتهُ تلك ، في الـصباح سافر إلى القرية ، وفي مجلس الشـــيخ أنصـــتَ الجميعُ لحديثه العميق عن خطر العلمانية على القبيلة .

****

خريف

احتشدتْ مشاعرُها ، واعتصمتْ نبضُاتها ، أعلنتْ ثورتها لتسقط سلطةُ الصمتِ المتجبرة عليه .....
وحين هتف لأول مرةٍ بحبهِ لها ؛ رحلتْ واستعمره غيابها .

****

المشنقة

على (باص) ،حجم وسط ، يتكئ على كرسيه المغبر ، يلوك أغصاناً لا علاقة بينها وبين القات إلَّا كون لونها أخضر ...

يردد مع أترا به في (الفرزة) كثيراً من الآ هات وقليلاً من أ ملٍ يقبض عليه بيمناه ليمنحه لأيدٍ اعتاد أن ينقش عليها ابتسـاماتٍ تجعدت على الأرصفة منذ وجع لا يزال طرياً .

يتحرك مع المقود بحركة مثقلة بهموم يتقاذف موجها على زجاج حافلته ، فيحجب عنه جزءاً كبيـــــراً من الصــبر المتعب على الطرقات ...

يعود سليمان إلى البيت بما يلملم به تلك الأركان التي تتكئ عليه لتقف أمام زلزال الفقر النازح في مدينةٍ مفتوحةٍ للمجهول .

يطرق الباب ليفتحه انتظار أمٍّ يطعن الخوف كاهلها ، تتوالى قامته المنهكة لتعانقه بصوتها الشجي :

-" لا تتأخر يا ولدي ، الدنيا ليست أمان ، وصوت الحرب يعبث بقلبي "

يُمرر تعبه من بين الغرف الغارقة في النوم بعد أن أفرغت قناديل الليل ضوءها المستعار من الشمس .

يقترب من غرفة والديه ليقبل جبين أبيه المتعرج من أوجاع الزمان، وينتظر منه العبارات نفسها التي يحتسيها قبل الانفراد مع همومٍ تسبقهُ إلى الفراش كلَّ ليلة كما تسابقه في ركوب حافلته كل صباح.

يترنح على سريرة، قطعة من الأسفنج سمكها سنتيمتراتٍ خمسة وبطانية شاحبة اللون ، ذلك هو سريرة . يستلقي عليه، ويلقي عن رأسه سماطةً تُزمُّ تحتها الكثير من الأحلام ، فتتناثر حوله ، فيحيي معها ليالٍ لا يفيقها إلَّا شبح الفقر المتسلل من كل صباح، فينهض معها يجمعها، ليخبأها تحت سماطته مرةً ثانيةً ويلتحق بأول صف لل(فرزة) ... ينتظر دوره...

يفتح هاتفه ، تبتئس ملامحهُ مع أول ومضة للرزق يترقبها، محاولاً معها أن يبتسم ، يترجل عن مقوده لعلَّ الضيق يغادر صدره المخنوق ولو للحظات ، يجاور ظهره مقدمة حافلته، ويرسل عينيه في السماء " فالأرض لا تتسع لأكثر من حكاية ألم " هذه عبارته التي يقولها كلما ترك عينيه معلقة في السماء .

يفقد شعوره بالمكان المكتظ بالعابرين إلى المجهول ، ينتبه لوقع يد محمود على كتفه ولصوته المجلجل : " يا صباح الفرج يا صباح ....،

بشـــــــر يا سـليمان ، ابتسـم ووكل ربَّكَ " ودون أن ينتظر رداً من ســليمان أكمل كلماته بصــوته الجهوري " وكأن همَّ الدنيا كلَّه على وجهك! كلنا في القطار نفسه لا نكاد نسد رمق الجوع ..."

لا يرد سليمان !! ويستمر بنظرته الهاربة في السماء، مناولاً محمود هاتفه مفتوحاً على صفحة الوارد ليقرأ : " مرةً أكثر من ثلاث سنوات ولم يصلني منك ريال واحد ... أريد المبلغ دفعةً واحدةً وخلال هذا الشهر ، لا ترد عليَّ إلا (بالفلوس مشتيش) أعذار."

يمتعض محمود وعيناه تمتر انكسارات وجه صاحبه ، يحاول كنس الحزن بعباراته الساخرة من وجع الحياة بتواكلية تتمدد مع بمقدار تمدد أوجاع هذه المدينة ، بعكس صاحبه سليمان المفرط بالجدية، جديته التي تصطدم دائماً بصخور لا تقترب منها عوامل التعرية .

محمود يعرف كثيرًا تلك الهموم الجاثمة على إمكانيات صاحبهالمحدودة وتفانيه ألا محدود، فسرد محاولاً تهوين مصيبته : " كم قصةٍ أوجعت شجن الحكايات، وكم فاجعة أطفأت نبض هذه المدينة ، فهون عليك .... ما ضاقت إلَّا وفرجت "

حرك مقود حافلته بعد أن امتلأت بالركاب، كان مســـرعًا على غير عادته . تبدو ملامحه في المرآة الأمامية، يتابعها الركاب، عينين سوداوين تغيبان أسفل حاجبين يزمهما غضبه أعلى أنفٍ حاد ، لا

تميز ما إذا كان وجه دائري فقطعتا اللحم اللتان تكســوان عظام فكيه لا وجود لهما مما جعل وجهه يفقد حقيقته التي خلق عليها يتذمر الركاب ويطلقون عبارات مختلطة المشاعر يتوقف وينطلق ، ويتوقف لينطلق ، مقابل ما يقبض من أجــرةٍ لن تشعل فتيلة من النور الممكن لإضاءة روحة المعتمة .

تقاربت المدة المحددة بعد أن التهمت أيامها كلَّ قوته . تحريك مقوده لم يطعم صبره بأي أمل .

يجدف الوقت مسرعا نحو آخر يوم لموعد تسليمه وتبطئ الهموم في إجهازها عليه .... توقف مع الغروب بعد آخر دفعة نقلها ، أُغلقت نوافذ أفكاره ، واندس في كومة هموم لا منفذ منها ، حتى منتصف الليل ، وهو مكتَّفٌ لم يغادر مقعده ... تذكر حلماً هناك يســترق حدود ســماطته دائماً ....حرك المقود باتجاه البيت ، بعد أن طوق عليه بؤس المدينة يُســـرع .. يخاف أن يحتله الخوف فيتراجع عن سيد الحلول ...

تفتح أمهُ ذراعيها ، لتطوق خاصرته كطفلة خائفة تتشــبث بمنقذها الوحيـــــد ، قبلها بلل حجابها بدموعٍ اقتحمتْ حراراتُها بردوةَ قلبها المرتجف ، اختلطت الأفكار لديها ، لكنها لم تهمس ببنت شفه ....

مررّ في يدها آخر ما في جيبه ، ليكون قوت يوم قادم ، تنقل بين الغرف الملتحفة بأنفاس أخواته وأخوته .... ينفرد بغرفته في ساعاتٍ يسرق الأنينُ فيها سباتَ المدينة ...

في ساعةٍ متأخرة من الصبح تتفقد الأم ابنها ، تفتح بابه ... فراشٌ مفرغٌ إلا من هاتفٍ ينبض بنور متقطع .. تنثر خوفها في أركان غرفة باردة ، تقترب من رأسها برودةُ أناملٍ فقدتْ رطوبتَها .... تلتفت ، تتخشب نظراتها في وجه سليمان .

****

ضياع

لم يكن عمرها يكفي لمواجهة تلك القوة التي شـــتتها بين أوراقٍ تلتهمُ نظراتها كلما تأكدت أنها وصلت للنهاية.

استنزفت تلك الصورة الوقت الأوراق و الجهد ، وعلبَ ألوانٍ كثيرةٍ خشبيةٍ ومائية وزيتية ، والكثير من صبـــــر أمٍّ يختبئ تحت عباءة صـــمتٍ وخوفٍ وبعض الأمل، ذلك الأمل التي تأتزر به ســطور كل الحكايات اليائسة والبائسة .

ضاقتْ غرفة سلمى بأوراقٍ وألوانٍ متضاربة عدا عدة المدرسة التي حافظت على ترتيبها مدةً مميتة لم تقترب منها، ولم تستدع أي وقت لها. الوقت لا يكفي لتنقلها بين الرسم والمسح ويتلاشى أكثر بضـــياع الألوان التي تســـيح بين الأوراق كلما انتهت من انتزاع الصورة من مخيلتها ووضعتها على الورق.

لم يثنِ عزمَها عن رســـمتها توبيخُ المعلمات وملاحظة المربية ! بل أضافت لإهمال الوظائف شروداً يختطف ساعات الدرس، ويختطفها شرود المحب الشـغوف ، والمفارق الحائر والخائف ؛ هذا ما تفصـح عنه عيناها وأناملها المرتجفة بين الأوراق .

استدعتها المديرة : "سلمى لماذا كلَّ هذا الضياع بعد ذلك التفوق ؟! سلمى ماذا استجد ؟

اكتفت سلمى بنظرات خجلٍ وخاطر في نفسها : "سأهتم بمستقبلي وأترك تلك اللوحة .....

في الغرفة ؛ تذكرت تأنيباً طرياً ، تناولت الحقيبة ، بدأت بأول اهمالاتها ، نبشـــت .... لم تكمله ؛ فثمةَ نزاعٌ يتقاســـمها ويربك أركان غرفةٍ ضـاقت بها : " دروسي أهم ، لا لا ... رســمتي الأهم ، بل دروسي أهم من تلك الرسمة ...."

اســتدعتْ دفترها من بين أكوام الورق ، قلَّبت صـفحاته...فتقلب معها خيالٌ لصورةٍ تشـــرح صدرها وخاطرها وتعذبها كلما حاولت صبها على الورق.

عاود النزاعُ يضـجُّ بتفكيرها بين ما تريده هي وما يُراد منها، يقطعهُ دخول أمها :" ســلمى طفح الكيل يا بنيتي هذه الرســوم ليســت أهم من ....."

ــ أي مستقبلٍ يا أمي، يستحيل المستقبل ولم تكتمل رسمتي .

اقتربت الأمُّ ، لملمت بعض الأوراق ، بيأسٍ تحننت : سلمى اختاري واحدة من هذه الأوراق التي رسمتها واكتفت بها.

أجهش صوت سلمى : أمي تحققي جيداً، ألا ترين هذه الورق أنها

تلتهم كلما رســمت – ويرتفع وجعها – فكلما انتهيت من تلوين رسمتي ساحت الألوان وتلاشى قلبي.

غادرتْ الأم الغرفة تلوك الحزنَ وتختنق بالخوف.

تُغلق ســلمى غرفتها، يُنهكها الدوار، يُفتت رأســها الوجع ، تختنق بخوفها ، تقترب من النافذة الوحيدة ..، تُلقي للسماء مصــرا عيها، ترتشف نفساً عميقاً، وتُرسلُ نظراً في البعيد ، وتمعن فيه .....،

تهللت تباشــير وجهها، اتســعت عيناها، اسرفت بالدموع . حينما رأت تلك الصــورة التي تســتحوذ خيالها تتوســط اتســاع الســماء، وتضيق في حدود النافذة ..

مدتْ أناملها ، نحو السماء ، لم تفلح في التقاطها ، ضاعتْ سلمى ما بين صورة بعيدة وغرفة تكدست بأوراق تلطخت بالسواد.

****

مُقـــــرر

ـاليوم نتبادل الأدوار ، من يشرح الدرس أيها الطلاب ؟.

ـ أنا يا أستاذة.

ـ حسنا ... إبدأ

ـ لكن ما هو العنوان يا أستاذة ؟.

ـ انظر لأعلى السبورة يا سعيد .

ـ هاه تقصدين حب الوطن ؟.

ـ سعيد .....!!

ـ لكن يا أستاذة هذا الدرس محذوف من المقرر .

****

أنقذوا أسامة

يمرُّ من نفس الحارة بقيظٍ يقضمُ خضرة قلبه وشتاءٍ مفخخٍ بفتاوى للحى تناسلتْ إثماً ، يتسلل بين الأزقة التي مشطها كثيراً مع أترابه في لعبة الغميضـــة قبل أن يُغمض الفجر عينيه على أبٍ كان هنا يحملُ لهم كل مســـاء عُلبَ الأمان الدافئة ،وخبز الحنان الشـــهي ، وحلوى حكايات بعد العشاء .

يتوخى أســـئلة قد تعترض اســـتراقَهُ للحقيقة ويتحفَّظُ إجاباتٍ فُرضت عليه قســـراً يلقيها على لهفة أمه ، ويواسي صدقه القديم : سأخبئ عيني خلف يدين تحمل نقوداً هي ثمن لحياة أقل بـــؤس ... ستفرح أمي و..... .

يخاف أســـامة في طريقه من ذكرياتٍ تخطفهُ بعيداً كلما اختطف الوقت ليصل إلى مضجع الأحلام ، فهنا تتفرع الذكرى وتأخذُ من كلِّ أ سطوانةٍ سوداء دائرةً صغيرة دارت بأ سامة حتى غرق في فوهةٍ عميقٌ خوفها ومشـــرئبٌ شرُّها ، ففي هذا الحي الحائر بزيارة أسامة بدأ الزمن مع أســـامة رحلة البحث عن ســـاعةٍ للبقاء، في أول ليلةٍ شاهد فيها الجوعَ يقضم أمعاء أخوته ويعصـــر دموع أمٍّ تحرك القدر بملاعق الحسرة ، وتنضجه بدموعٍ لا يُخمدُ وجعها .

تذكر مثلها ليالٍ تقاسمها الجوع والقهر وكثيرٍ من خطى غرقت في غياهب اليأس ، كلما رجع بدون حقيبةٍ للعمل .

ســـاعات من العبور ليخرج أســـامة من حقيبة ذاكرته ، ويدخل حدود البيت ، ويضع في جيب أمه نقود الخبـــز والملح وكثيراً من المجهول..... يتسمَّرُ بالإجابات المموهة ليستمرَ ذعرُ الأسئلة يُجفف شـــفاه أمه : من أين هذه الريالات يا بني ، أين تغيب ، متى تعود ...؟؟ .

تكررت تلك الاختلاسات للبيت بين كلِّ نيفٍ وشهور.

كلُّ طيفٍ يمرُّ منه مرور الحنظل في حلق عاطش ، تمضغ قلبه تلك المرارة بشراهة ....

- رددي أيتها الدنيا نشيدي .... يستمر مردداً لن ترى الدنيا على أرضي وصيا .....رددي .....

يهمس متلذذاً بغصـــة صـــدى طلاب المدارس ، مودعاً زقاقاً منبثقاً من قلب أمٍ يرتجف .

يتلاشى وقع الخطوات ويضـــيع ريحُ أُســـامة عن أنفاس أمٍّ تتقطع خوفاً ... تشـــتمُّ نتن تلك النقود ، تقبضُّ عليها ، وتعض صـــبرها وتغيب هيا أيضـــاً في قش أســـئلة تنتهي بوجعٍ يهمس - أُســـامة ، أسامة ..... !!

*أسامة ؛ الاسم الذي هو أول وآخر ما تصرخ به هذه الأم وتهمس ، فتى عمره بين حدود الطفولة الحالمة والرجولة الطائشة ، نزق الأفعال رجل الوعود لا يحجب الخوف عنه مطلباً ، لا يضع ما يسمعه موضع الحفظ ولا موضع الهزل يقلِّبُ ما تتقلب به الألسنُ ويسجعُ به ليلاً في صحوةٍ والجمع نيام ، لتلك الصفة الأخيرة كان مرصد عيونهم في كل نفس.

في دهاليزٍ لا ترى الضوء إلاَّ ما يسترق خلسةً من منافذ متناهية في الصغر ، تبدو لمن يراها عيوناً لشياطينٍ حُمر ، وبين أركان عارية الحقائق وعلى مقاعدٍ يقضم الكذب أقدامها ؛ هنا يتعلم أُسامة كيف تُخطف الأرواح وتُضجُّ الشوارع بالنواح ، ويحفظ جيداً كيف يجمع الموت أكبر عددٍ من الزوار ، هُنا فقط تعرَّف أُسامه على جنةٍ تُمنحُ لمن يخالف قوله تعالى و من أحيا ها فكأنما أحيا الناس جميعا...) ووُضِعَ في جيبهِ مفتاحُ فردوسهم الأعظم ، وهنا وحسب ينادي المنادي بصلاة الموت على الأحياء اختياراً .

*لا تزال عضلاته الطرية طور البناء الذي يعدون له، لم يكن وقت عناق الحور قد حان بحسب مراسيم احتفالاتهم .

لكنهم أدركوا باجتماعاتٍ لكبار اللحى أن أسامة لا يصلح للأمد الطويل إلاَّ بعد جهد قد لا يثمر؛ فهو يملك ضميراً لم يجف بعد .

فلا يزالون يجففون ضميره بدماء تُراق على يديه وبيوتٍ يهدر نورها بسواد قميصٍ ألبسوه أياه ومع كل ذلك لم يجف ضميره بعد .

*لا يزالون .... ، ولا يزال ذلك الركن الوحيد يشارك أُسامة خلوتهُ وشتاتهُ ويتقاسمهُ الأفكار كلما روضتهُ خُطب الظلام .

يتوسده الخوف ويقتات وحدته حاضرٌ متوحشٌ، ويستوطن ناصيته الضياع. لا ينام أُسامة مع النيام فلا تزال اليقظةُ تداعب أهداب قلبه .

لا يضطجع أُسامة ؛ يشتدُّ أرقهُ ويخافون صحوةً لا تهجع ، يجرعونه أقراصاً لنوم قسري . فيغلب النوم أُسامة فقد كان بحاجة لمثل هذا الهروب.

يتوسط شاب حسنُ القامة بهي الوجه حَشْداً من الناس فيهم الغادون، والعائدون، يبدو عليه الذعر وهو يتلمَّسُ حزام بطنهِ المشبع بالموت ... ربما لم يشاهد أسامة ملامحه في مرآة بهذه الدقة منذ وقتٍ طويل !!، يتحسس الزر الذي تدرب على ساعة صفرهِ، يشدُّ ناظريه صوت قادم من نفس الحشد : أُسامة ... أسامة ....، يقترب الصوت وتعانقه الملامح ... تجحظ عينا أسامة ؛ أنه هو صالح، يهرع صالح نحوه و يحمل في يديه أكياساً تحوي كما يبدو وجبة غداْء لأكثر من أربعة أفراد ، يده على الزر وعينه نحو ابتسامة صالح التي تمرق الصفوف باتجاه الزر ....

يهزُّ صراخه الأركان الهشة ...، تقترب من أُسامة أيدٍ وأصواتٌ غلبها النوم : ماذا بك يا أسامة ... ؟؟؟ استيقظ ....أذكر الله .

يستيقظ أُسامة ، يتحسس خاصرتهُ ويبكي بكاء طفلٍ لم يزل قريباً منه يتقدم بطلب للخروج لنفس الغرض وفي نفسه شوقُ الخائف العاجز عن فعل خاطرها ، يغيرُ أسامة طريقه هذه المرة قاصداً نفس الاتجاه ، يسوقه الفزع مسرعاً فيخترق الهواء شعب قلبه على عجل ، تخطفه الذكرى أيضاً لكنه ذكرى وحيدة ، يقف معها على رصيفٍ قافر ، يتوسطه ذلك ا لمفوض غير المألوفة ملامحهُ طويل القامة حسن المظهر على عنقه ربطة مدبجة الألوان وعلى رأسه طاقية يقارب لونها لون بدنتهِ ، رشقت الحسرة حنايا أسامة على لحظات مسح بها صاحب الهندام على حظه ، وتسلم فيها أملاً جديداً لسد رمق الكرامة كونه سيعمل في منظمة يتقاضى منها أجراً يشتري به الحياة ؛ بعد أن تحفرت قدماه بحثاً عن أي عمل تلتحم به شروخ ا لفقر الكبيرة . لم يكن يعلم أن ذلك الهندام وتلك الحلة التي ترتدي ذلك الرجل إنما هي غطاء لذاك المستنقع الذي غرقت فيه قدماه حتى الخاصرة ... واصل طريقهُ ... ، تخمش الحسرة جدار حنينه . كانت رؤية صالح بالنسبة له هي نهاية ما أفزعه البارحة ونهاية الزيارات والنقود بالنسبة لهم .

يدخل الحارة – هذه المرة – في وضح النهار .... يُفتح الباب دونما

طرق ؛ فللتو رجع صـالح من المدرسـة ، لم يملك وقتاً ليسـأل أمه بعض ما يدور في رأ سه ... أم سك بكتفي صالح ، تلم سهُ بعينين ترتعشان بدمعٍ خفيف ، يحتضنهُ حضن الأمان في صدر الفجيعة ، والأم تقف متخشـبة الأطراف عاثرة الأنفاس ، يقبلها... يضـع في رعشـت يديها نقوداً تزيدها برودة ، ويغيب ، كما تغيب في كوب الشـاي قطعة سـكر لتزيل مرارته ، وكملح انتهى في تكور قطعة خبز.

يعود أسـامة - لكن ليس لحضـن أمه - لوكر الثعالب ذلك الذي بدأ بجلة الخداع لينتهي برداء الضـياع لأسـامة ولمجهولين سـبقوه ويلحقوه.

يأخذ أسامة مقعده في أكاديمية الموت ، يظهر عليه وجوه لتختفي وتظر غيرها فلا يتذكر من كل تلك الوجوه إلا أنياب تبرز خلف عواءٍ يحيي ليالي حالكة الدموية .

وفي الدقائق الأولى ليـوم لم يكن بعيداً في أحد الأركان المغبرة يأتي أُسامة نفس الحزام وبنفس الزر ، ويقف أمامهُ كبيرُ الدهاليز فيعلو ضجيج الخُطب ، وعويل الكذب . يتصدع قلب أُسامة : أين المفر؟؟ الحزام يُطوقِ سـاعاتهِ ودرعٌ مرصـعٌ بالمـــوت يرتديه ، وحشـدٌ لا يحصـى يبتسم للحياة ، أنهُ مثقلُ الخُطى عاجزٌ عن الهروب من الموت هنا إلى الموت هناك ...

يقرر لذسفه : لن أ ستبيح حياة كل هؤلاء ، لن أ صادر أنفا سهم....
لن ...
وقف أسامة وحيداً مع الزر بعيداً عن الحشد .
فأين الحشد من أُسامة؟؟؟؟

القصة الحاصلة على المركز الأول في مسابقة انقذوا أسامه التي تقيمها ساحة شباب اليمن و اذاعة هولندا العالمية.

****

مخطط

حرصت على الحضور ، رغم وجود أكثر من دعوة غيرها في جيب حقيبتي ، كان الوقت في خرم إبرة، والعنوان شهيًا، قبل الموعد بساعة تحركت تجنباً التأخير كوني غريبة في مدينة بحجم مدينة البرج العظيم، تبعت المخطط المرفق بجانب الدعوة والمرسوم بورقة صفراء صغيرة مربعة من المقوى يزينها برواز من الورد بلون فضي به لمعة خفيفة، أما الدعوة نفسها فقد صُممت بعناية تجبرك على تأملها قرأت لافتاتٍ عدة حفظتُ أسماء العديد منها، تشربت عيناي الأضواء المتعانقة هنا وهناك، أدهشني ذلك الصخب حتى كدتُ التهي عن المخطط الذي تقلبه يداي بين الدقيقة والأخرى .
طال الطريق ، تهتُ بين تفرعاته ، ألقيت النظرة الأخيرة في المخطط، تنقلت عيناي هنا وهناك، أجزمت أني أخطأت الطريق، أعدت النظر كرة أخرى، كدت أتراجع لولا فضولي لمعرفة سبب ذلك الازدحام، في شارع مهم في مدينةٍ مشهورة، وكلما أوغلت أكثر استفزني السؤال نفسه : ما الذي يجعل الناس في كل جانبٍ تفترش الطريق لتبتاع تشتري، وتغلق الطريق في مرأى من رجال الأمن ... ــ من يزود .... من يدفع أكثر ..

تلك الكلمات التي تضــج بها مكبرات الصــوت ، لمزادٍ مفتوح في مدينة منظمة كهذه أمر ضاعف دهشتي قررت أن أ صل إلي نهاية كل هذا الضــجيج والفوضى واصــلت طريقي اقتربت من النهاية أصــبحت خطاي أسرع؛ أذهلني سرعتي المفاجئة، لكن حين أخذت أتلفت ذُهلتُ أكثر؛ فجأة ارتطم رأسي بحائط ضخم ، وقبل أن أســتعيد توازني تحســســتُ رأسي، ورفعت ناظري لأقرأ بالخط العريض (المؤتمر العالمي لحقوق المرأة)

****

خلافـــــة

وضع أبي حقيبته السوداء على الطاولة الخشبية المثبتة يسار الباب ، لم تنتقل هذه الطاولة من مكانها منذ وعيت عيناني حقيقة الأشـــياء في بيتنا ، أحنى أبي قامته الطويلة ليخلع نعليه ، وقبل أن يعاود أخذ حقيبته كانت أجســادنا قد طوقته، ضـمَّنا بذراعيـــــه القويتين ،ثلاثتنا بعشـــوائية نقبل ركبته ، وجهُ ذو اللحية الكثة ركبتيه. كم كانت تحلو لي تلك القشعريرة التي يحدثها شعر لحيته حين تلامســـها وجنتي ، يناوب ســـالم وغانم بأحياء هذا الحدث، بصورةٍ تكاد تكون مدعاة للغرابة المستفزة ، لولا كونها تصرفات طفوليـة، فكلمـا خرج أبي ودخـل من بـاب بيتنـا يهرعان نحوه يتنطنطان حوله ، يقبلانه ، وإن لم يتجاوز خروجه الدقائق ، بينما كنت أنا قد انشغلت عن هذا المشهد شيئاً فشيئاً وربما انشغل هو عني ، أما صالح ، فلم تعد هذه الطفوليات تعنيه ولا تغنيه ، قال لي مرة ذلك حين سألته ، لماذا لم أشاهدك يوماً تقبل أبي ؟! في الحقيقة أن تلك الممارسات لا تنا سب ملامحه الحازمة التي فرضت عليه ، كنتُ ألمح رفض مساماته لذلك التصنع مراراً وهي تنكمش لتخبئ

كلماتٍ كثيرة ، كانت مكابرته تجعل تصنعه أكثر وضوحا كلما وقعت عيناه على ممارســة لنا لا تناســب مع ما هو عليه ، كان فجأة كمن يتلبســه المس ، يفزُّ فجأة ليتركني أكمل لعبتي منفرداً ، ويتقمصــه هو الدور الذي يجب أن يكونـــــه . رافقنا أبي ثلاثتنا إلى غرفة المقيل؛ سالم ، غانم ، وأنا، بينما أكتفى صالح بتحيته لوالدي ، وغادر المنزل ليشــتري ما ينقص وجبة الغداء، بعد أن وقف بمحاذاتنا ينتظر أن تنتهي تلك الغرابة، كان بإمكانه أن يغادر، لم نكن أمام الباب كنا بجانب الطاولة لكنه انتظر !! ربما ليســتعرض كلماته كعادته " إذا احتجتم شــيئاً آخر أخبروني قبل أن أخرج ....." . لا أدري لماذا يســتخدم صــيغة الجمع تلك مع أنَّه ودونما ذرة شــك يخاطب أمي فقط .

لم توكل إليَّ مهمة أن أجلب شــيئاً للبيت لم أفعل ذلك ولو لمرة وحيدة ، حتى أني لم أكن مسؤولاً عن نفسـي ولو في أن يكون لي لونٌ مفضلٌ لقميصي ، " صالح الأذكى ..." هذا ما يقوله أبي دائماً، وهو وليُّ عهده في غيابه الطويل والقصير، لكن ذلك كان قبل سنة، أي قبل أن نتطلع إليه وهو يملس زغب شــاربه أمامنا كلّما تخاطب معنا، ما بعد ذلك فهو وليُّ العهد حتى في حضــور أبي. صــالح يدبر أمور البيت، يشتري ما تحتاجه أمي حتى أشياءها الخاصة جداً، وهو من يمنحنا ريالات " الجعالة " بعد صلاة العصـــر، الصلاة التي

يواظب عليها أكثر من غيرها، أحيانا كان يرفض إعطاء نا تلك الريالات ، ويشتري ما ينا سبه هو إن لم تتوسل إليه أمي، قد يبدو الأمر شـــاذًا إلَّا أن أمي كانت تتوســـل إليه؛ حقيقة الأمر أن أمي لم تقبض مصـــــروف البيت ولو لشهرٍ وحيد، كان ذلك يؤلمني كثيراً ؛ بالطبع لأن أمي ستكون أكثر سخاءًا وليناً معنا، سالم ، غانم وأنا، إلا أن ذلك الألم يظل ملازماً لقلبي لأنـــه كان يؤذي أمي ، مع أني لم أســمع منها كلماتٍ تســتنفر ذلك الأمر، وما كنت لأفطن لذلك لولا أني لمحتُ خلســةً ذلك الانكســـــــار في عينيها ، وســمعت تعرجات صوتها أكثر من مرة أمام جارتينا تقيه وزكية :

" أنا آسفة الفلوس مع زوجي ، وإلا لما كنت بخلت في فك ضيقتك ..." لا أدري لماذا كانت جارتانا الطيبتـــــان كما تصــفهما أمي تكرران ذلك المشهد معها ؟ في بداية الأمر كنتُ أعتقد أن تهدج صوتَ أمي لأنها ليست معتادةً على الكذب ، وحينما نضج اعتقادي قليلاً حدثتُ نفســـــي " أمي تخجل لأنها لم تُمثل يوماً دور الجارة المنقذة لجارتيها اللتين تحبهما كثيراً ، لكن متأخراً ودونما حاجة لاســتنتا جاتي الدقيقة لملامحها أدركتُ أن أمي الوحيدة من بين جاراتها التي لا تملك أدنى تصـــــرف في بيتها ، حتى أنني ذات مرة ســمعتُ صــوت جارتنا تقية وهى تكرر عبارتها " لن تحصــل على غير الألف الريال هذا ....

يجب أن نقتصد .. " . ظننتُ وقتها إنها تخاطب ابنها لكني تفاجأت عندما خرج زوجها وهو يضـــع ورقة الألف في جيبهِ مبتســـماً ومغادراً المنزل.ابتسمت ؛ كان الموقف غريبًا حينها بالنسبة لصبي نشأ في بيتٍ كبيت أبي .جلسنا بجانب أبي الذي استلقى على أريكته منتظراً الغداء، أبي يعمل بجد طيلة النهار ، تقول هذه العبارة أمي حينما نبالغ في إزعاجه، تقابلنا حول الطاولة ، تناولنا الغداء، استلمنا ريالات الجعالة* ، وتركنا أبي لعصريته مع أمي .

في فجر صباح تلك الليلة مات أبي ، لم نعلم سبب موته ، غير أن الطبيب قال : سكتة قلبية ..... كانت آخـــر ليلة لنا معه. تكورنا ثلاثتنا حوله فوق سريره الخشبي الفخم المنحوت بلون بني داكن، ولحافاته ذات الألوان البراقة، كنتُ أرافق غانم وقاســـم التوأمين طقوسهم البريئة ، لكنني لم أكن أتصنع شيئًا مما أصنعه معهم، رغم كوني أكبر منهم بسبع سني، نام سالم في ملقياً رأسه على ركبة أبي ونام غانـــم هو الآخر بحضنه ، ذلك آخر ما أتذكره، شيئاً ما يصفع ذاكرتي كلما حاولت أن تتذكر تفاصيلاً أكثر من ذلك اليوم ، أفقتُ صباحا ملتحفاً بلحافي، أرتجف رغم ثقله في غرفتي المقابلة لغرفة أبويَّ، تماماً حيث أنا الآن لكن دون سريري و لحافي الدافئ، أراقب أمي و سالم وغانم بجـــانبيها يفترشون لحافاً لا يكاد يرى،

لم يبقَ شيءٌ بعنا سرير أبي ومكتبته وخزانته وسريري وكل ثمين في بيتنا ....

مات أبي وتركنا فراغاً موحشـــاً ، إلّا أن غبطة تثلج صـــدري كلما تذكرت أنّي نجوت من دور صـالح، منذ أخبرتني أمي أنّه كان بإمكان أبي تجاوز الأزمة حتى بعد أن اختفت كل أمواله لو أن صـــالح لم يختفِ هو الآخر.

****

* الجعالة : ســـكاكير وحلويات يشـــتريها الأطفال عصـــر كل يوم .

بائعُ البرتقال

-اليوم ربح ربح يا أمه .
- أين ابتعت هذا اليوم يا ابني ...؟
-- في الجولة يا أمه ، في الجولة ، وهل من مكان آخر.. هذه الجولة باب رزق يا أمه !!
قبل أن يسبح نومه العميق ، كان قد فتح الصندوق ، ودسَّ في الفتحة الصغيرة أوراقَهُ التي احترق نهاره لأجل الفوز بها ، وأمسك به ليهزه قرب أذنه وعيناه كأنما تراقب مشـهده النقود وهي تتعارك مع بعضها، صوت النقود الحجرية يفصح عن ذلك العراك القصير. سـعيد لا ينام إلا وقد بادل الصـندوق أمانيه وأحلامه، والخوف الذي لا ينتهي ... واسـتودعه أمانته " كن أميناً على نقودي أيها الصندوق ، وأعدك أن لا أتركك حين أغادر تلك الجولة المشؤومة" منذ الصـباح الباكر وبعزم كبير للوصـول إلى البداية التي تتوقف فيها الشـمس عن لعق رأسـه ... ..عربيته أمامه، ورجله اليمنى خلفه ،يغطي أكياسـه بقطعة قماشٍ ، هو حريصٌ دائمًا على أن يجعلها نظيفة بعكس معطفه القديم ذات الجيبين المبوبين بحافتين سميكتين لم تكونا تلك الحافتين تكونتا لولا ديناميكة مزدوجة

بين يديه المتعرقتين وغبار الجولة أثناء دسه الريالات فيها ، جيبان بحافتين كفيلتين با صدار صوتٍ ينشـــــر أ سنان من يمر بمحاذاة سـعيد الصـغير، ويقع بصره وسـمعه على تلك الحركة التي تسـتمر لدقائق ، يخرج يده ويعيدها ليخرجها... ينادي بكل ما منح من قوة ، تاركا يده تكمل عملها.

ــ حراجاه يا رواجاه ، السبع البرتقال بمائتين ...

تحسس سعيد ما وقع أسفل الجيب، هو يعلم عدد ما أدخلته يداه، لكنه يكرر العمليه مصدراً الصوت ذاته ، ليس لغرض عدها إنما لأنه هذه الممارسة جزء من يومياته.

ــ يا صغير ،... .يا سعيد الصغير ...

يلتفت سعيد ، ويده تمسح هلال رأسه الذي يتسع يوماً بعد يوم .

-- هيا بعت البرتقال .....، كم قد بجيبك اليوم ؟!

-- وأنت ما دخلك يا رازح ، أنت مندوب على الباصات وإلا عليَّ ، يكمل رازح كيل أسئلته المستفزة على سعيد الصغير...

هو يعي أنها تؤدي المعنى نفسه كما يعي سعيد بالمقابل المكر الذي تخبئه ابتســـامة رازح ، الابتســـامة التي يختفي جزءها الأكبر تحت يسار وجه المنفوخ بالقات ، كما يختفي من بياض عينيه أنقاه تحت احمرارها الذي يترقب سائقي الباصات هنا وهناك .

سعيد لا يرد على تلك الأسئلة ويتغافل مكر ابتسامة رازح ، يلقي

لرازح ظهره ويمشـــي جاراً قدمهُ خلفه ، حاملا أكياسه ، مرسلاً صوته باتجاه المارة...

-- حراجاه ... يا رواجاه ، السبع البرتقال بمائتين .... حراجــاه .. يا رواجاه...

-- ارجع ارجع ... ، أنت وهذا (الكوت) العفن ..

يمسك رازحٌ بسعيد ويجره نحوه ..

يقف سعيد ، يرمق المندوب رازح بصمت وهو يبسط رجله اليمنى ليجلس على الرصـيف ، يقبض جميع الأكياس بيده اليمنى ، يدخل اليســـرى في جيبه ، يغوص بها بحركاتٍ دائرية ، كمن يبحث عن فتات جف بقاع قدرٍ أسود ، يناول رزاح مائة ريال .

يخطف رازح المائة الريال ، كادت المائة تفقد ما تبقى من جسد نحيل تقاوم به في يد رازح .

-لو كنت خرجتها من أول يا صــغير ، يعني كل يوم لازم نفعل المشهد نفسه ...؟

يُتبع رازح تلك العبارتين بابتسامة مكر .

ويترك ســعيد نظراته الناقمة في شــق رازح المنفوخ ، ويعبر إلى الشارع المقابـــل ، مفرغا غضبهُ بكلمات غير مفهومه ولعن لم ينتهِ إلا بعد وصوله الرصيف الذي لا يرى فيه ذلك الرازح.

ألفتِ الطرقاتُ قدمه المجرورة خلفه ، وشفتي جيبيه المتدليتين ،

وعربته عديمة اللون ، التي تتقدم مسيرةً لم تملك وقتا محدداً للانتهاء ، واعتاد هو شلالات العرق التي تمشط قميصهُ الممرغ بأتربة المدينة ، تأخذه استراحةٌ قصيرةٌ ، يتلمس قميصه ، يشرد هناك ، لم يعد يؤذيه ذلك الملمس ، أنهُ فقط يتذكر به آخر مرةٍ اشترى فيها قميصا ، كان ذلك قبل أن يقرر وضع نهاية لبيع البرتقال في الجولة ، سعيد يتذكر ، ويفقد الكثير من التفاصيل في زوايا ذاكرته .

بعزمٍ جديد يعاهد نفسه ألا يأخذ من صندوقه إلا ما يبقيهِ وأمه على رمق الحياة . كلما تفننت لسان الشمس في لعق شعيرات رأسه ، ودسم غبارُ الرصيف ما استعصى عليها ، جدد عهده .

هي الليلة العشرون بعد الألف وربما بعد آلاف الليال التي فتح فيها الصندوق ، والمؤشر لا يبشر بأمل ، ينطوي بحزنه ، يذهب صباحا بعد كل ليلةٍ من تلك اليال لأمين صاحب البوفية الوحيدة في الجولة أو الأكثر قرباً ، ليكرر عباراته العربية والأكياس بأمانتك ، قلدك الله يا أمين ...

يدرك أمين ما يُلمح إليه سعيد لكنه لم يتفوه يوماً بتذمره من سعيد .

لم يرتفع مؤشر الصندوق ، حتى رنين الصندوق خانه .

-سينتهي الموسم كما أنتهى غيره ، وأنا ما استفدت شيء. هوجس

كثيراً بأن أمه قد تكون سبباً في حركة المؤشر .....
أشتدت بكرتـــه ، يحمل إصراراه حيناً ، ويتكئ عليه كلما مضغ أغصان القات فوق عجلة الطرقات ، سعيد الصغير لا يختلف عن غيره ، يعاانق أحـــلامه ، ويبسط أولوانها يمتطيها ، تأخذه نشوة أغصان القات إلى العالم الذي لا يراه سواه .
يأتيه فجر جديد ليخيط من شفقه الكثير ويمني نفسه بالكثير.
- السبع بمائتين، حراجاه يا رواجاه ..
وحده صوت هذه العبارات لم يخنه كتلك الأرصفة التي غدرت به عقب البيعة الأولى بعد العاشرة، وربما ما قبلها بكثير، ودسمت صـوته أسـفل عجلات الحافلات ، فيغادر بعد أن يشـاهد صـوته مشلولاً في عيون المارة . فلا تعود أدراجه نحو شارع سبق ومرت به أكياسه السوداء... ترصدت المدينة المزدحمة بالغبار تحركاته وتسجلُ عدد حبات البرتقال، وكمية الأكياس التي غادرتـــه نحو السـماء تمكنت عدســاتها من حفظ كل ذلك. تقاصرت أحلامه ، وأمتدت صــلعته، لتحتفل الشــمس بمســاحتها التي ترى فيها ما يدور في نهارها من عجائب .
خنقهُ حديثهُ مع أمه المشكوك فيها ، لكنه قاوم وأكمل :
- ذلك هو كوب الشـــاي الصـــدئ ، وكيس المرق ، ورغيف العم صــالح المحروق .. لم ننفق ريالا في قطعة لحم .... منذ ســنوات لم

نســـمح لأمعائنا بأكثر .... من ذلك لماذا لم نربح ... لماذا ..؟ لماذا تنقص الفلوس من الصندوق .؟؟؟ .

لم يحاصر الخجلُ حديثَ سعيد حتى آخره وهو ينشر كلماته بصوت حاد ، تحت جفنين ذابلين خبأت الأم خيبتها ودفنت سوءة ابنها في قلبها ،وغسلت أثرها بدعائها :" الله يوفقك يا ابني ..... اسعَ وربك يبارك لك برزقك.... "

* هذه الجولة المجهولة بعد مئات الجولات التي ينتقل إليها ، ولم يجد مبرراً لعدم ارتفاع مؤشر الصندوق ، ولم يتوقف عن نداءاته : "الســـبع البرتقال بمائتين ، يا حرا جا.." يرفع يد يه المحملتين بالأكياس الســـوداء يجر رجله خلفه ، يمر من هذا الباص إلى تلك الحافلة ، تكاد أكياسه تلامس شفاه الركاب ، وهو ينادي مبتسماً باصرار في عيونهم .

-السبع البرتقال بمائتين... . يا حراجاه ، يا رواجاه ... اشتروا ببلاش .. السبع البرتقال ب... ..

-اهرب يا جني ، اعميتني ، خلني ابسر عملي.

زجره رجلُ المرور ، بعد أن تناثرت أكياســـه وتدحرجت حبات البرتقال أســـفل جنون عجلات ســـيارة بدون رقم ، لم يتمكن شرطي المرور من التفاوض مع سائقها .

التقط حبات البرتقال التي التقفها الرصـــيف ، تمتم بكلمات غير مفهومة ، تتبعت عيناه حبات البرتقال المدهوســة ... .. ترقب عيون المارة وهي تلاحق بطون حبات البرتقالية تلد ليماً أخضر ....
كأنه لم يشاهد ذلك ، خبأ عينيه ، فر هارباً وأصوات المارة تصرخ ، غشاش ، غشاش ، مغالط.....
تلونت يداه باللون البرتقالي ، ارتجف وهو يتلمسها ، بقرب الباب ، فتح الباب ، نادى أمه بصوت متهدج ، " سنرحل يا أمي ، سنرحل... "
*في جولة مجهولةٍ ابتاع بضـــاعته ، فترة طويلة قبل أن ينكشـــف أمره ويغادرها إلى جولة أخرى ، لكن مؤشر الصندوق لم يتحرك، يهزه كل ليلة وينام.....
قرر سعيد أن يتوب ، وأن يمر من الجولة مرور الكرام ، وفي أول مرور له في الجولة ، سمع مئات الأصوات تبيع البرتقال ، فضحك ضحكةً مدويةً، وعاود مسرعاً يحمل أكياس الليمون، ويصرخ : " السبع البرتقال بمائتين ... . حراجاه يا رواجاه .."

****

جارِ البحث .....

طيلة الطريق ظل ممسكاً يدها بقوةٍ، وهي طيلة الطريق كانت تسلمهُ في كلِّ ثانية قلباً منها ..
في أول منعطفٍ للطريق جردَّ يديها من قبضته، وسلك طريقاً جديداً ...
أما هي فتعاود الآن الطريق نفسه؛ تبحث عن قلبها تحت آثار أقدامه.

****

محتويات الكتاب

إهداء خاص	٣
الإهداء	٤
كسوة	٥
بلقيس	٦
قصاص	١٠
بث مباشر	١١
غفلة	١٢
عام جديد	١٣
أسئلة	١٤
كساد	١٥
حكاية وطن	١٦
قلم رصاص	١٧
هامش	١٨
جلد الأسد	١٩
الكلب الوفي	٢٠

تذكرة	٢٢
مقاومة	٢٣
كان يارمضان	٢٤
غربة	٢٥
في حضرة القط	٢٦
عروبة	٢٧
راتب	٢٨
إرث	٢٩
نور	٣٠
الشيخ والجزار	٣١
شاخ القمر	٣٣
دكان	٣٤
رمد	٣٥
ثُقب أحمَر	٣٦
ثورة	٣٧
حديث سائق	٣٨

تحت الجسر	٤٠
سرقة	٤٢
مصيدة	٤٥
يقظة	٤٨
أوجاع	٤٩
مستقبل	٥٠
أمل	٥١
شوط إضافي	٥٢
بطانية	٥٣
جلسة طارئة	٥٤
وباء	٥٥
جزاء	٥٦
وأسدل الستار	٥٧
وهمية	٥٨
الرسالة الأخيرة	٥٩
شهادات مرموقة	٦١

خريف	٦٢
المشنقة	٦٣
ضياع	٦٨
مقرر	٧١
أنقذوا أسامة	٧٢
مخطط	٧٩
خلافة	٨١
بائع البرتقال	٨٦
جار البحث	٩٣
محتويات الكتاب	٩٤

تمت بحمد اللّه

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني محفوظة للناشر